جمعة في سيارة

—١٢—

من بروكسل الى ميادين الحرب الكبرى

أتينا عاصمة البلجيك من باريز في قطار يسمونهُ القطار الأزرق وكانت قد مرت بنا أيام وأسابيع وليس لنا من مطية الا سيارتنا ميمونة الطالع فآنسنا القطار بعد طول وحشة وغفرنا لهُ دخانه الكثيف ذا الرائحة الكريهة لقاء المقاعد الوثيرة يمدّ احدنا رجليه عليها — في غير ايطاليا — ويتمطى ساعة ويقف أخرى غير مقيد بمجلسه كما في السيارة

وطرأ على خاطر صاحبنا المصري فكر ثاقب قال : لماذا لا يجعلون دخان القطار يتسرب الى الهواء من آخر عربة من العربات بدلاً من ان يتطاير من القاطرة في الأمام فيعمي الركاب ويسدُّ عليهم المنافس ويلقي على اثوابهم وامتعتهم طبقة من الاقذار . وليس ببعيد على همة المهندسين ان يثنوا انابيب تتصل بالعربات حتى الأخيرة منها فينطلق بها الى الفضاء . فاذا احد الرفاق يقرُّ لهُ بالعبقرية ويهزأ منهُ الباقون

وصلنا بروكسل في الطفل وسحاب سمائها قد غال ضوء نهارها وأخذ يصب على المدينة مطراً كأنهُ ماء القِرب فهرولنا مسرعين الى فندق رحب فخم كأنهُ قصر رجل أغنتهُ حوادث الدهر بعد امعانها في افقار اجداده فأصبح كاملاً تامّاً مستوعباً كلّما يطلقون عليه احدث اساليب الراحة العصرية

وما راع صديقنا الانكليزي الا هؤلاء الناس الواقفين على خدمتنا فاذا تحرّك ليركب الرافعة بادره الخادم بقوله (اذا شئت) او نزل منها اعادها عليه (اذا شئت) او قدم لهُ الندل الطعام كررها (اذا شئت) او تناول الطعام او ابى وهكذا حتى ضاق صدره وصرخ ما هذا اللطف الزائد ؟ ايقلقون راحتنا بهذا التأدب المصطنع ؟ ان خيراً منهُ السكوت ! ثم فهمنا بعد ان اقمنا اياماً في بروكسل انها عادة متبعة

ولما كان صباح اليوم التالي خرجنا نمتع انظارنا ببروكسل — والبلد لا بأس بجماله فقد كان عاهلهم المتوفي والد الملك الحالي قد آلى على نفسه ليحسننَّ فيه عساه ان يجعل

مثة باريزاً صغيرة تنبه عن رحلاته المتتابعة الى باريز الاصلية. وقد وفّق ايما توفيق في المظاهر الخارجية . فطرق العاصمة مستقيمة واسعة وفيها آيات الفن ومتاحف لا بأس بها

اما في ما سوى ذلك فخانهُ الحظ فانك لا ترى في بروكسل نساء جميلات خفيفات الروح ولا ترى في اهاليها ذلك الذوق الذي ينسيك ما يحيط حولك القوم في باريز لاصطياد نقودك

وربما كان البناء الذي اقاموه قوساً للنصر احتفالاً بانقضاء خمسين عاماً على استقلالهم من خير ما في بروكسل . اما قصر ملكهم فعادي لا يستوقف النظر . انما احتضوا دار العدل عندهم بأحسن المواقع وبأفخم الابنية

محاكمهم ومحاكمنا

فترى محكمتهم قد اشرفت من قصر عظيم على كل البلد وأمامها ساحة واسعة لا يدرك بها الطرف فانكمش صديقنا المصري ودخلت اعضاء جسمه بعضها في البعض الآخر . ذلك انهُ عاد بذاكرته الى دور المحاكم في بلاده فأخذ يقابل هذه بتلك فالمحاكم المصرية دون محاكم العالم ذات دخل يفوق النفقة فلماذا لا تنفق الحكومة عما يزيد في ميزانية هذه المحاكم على تحسين دورها ؟ ان مظاهر العظمة لمن اكبر البواعث على انهاض النفس واحلال العزة القومية محل الاستكانة وعدم الاكتراث

وانك لتدور حول العالم فترى محاكم الناس قصوراً يزينها الفن وتكسوها النظافة ثوباً قشيباً. اما في مصر فعند ما خطر للقوم ان يشيدوا بناء المحكمة العليا زجّوه في اضيق الاسواق واقذرها بحجة تقريبها من العامة ولكن الحقيقة ان الاجنبي الذي امر ببنائها لم يكن يدرك ما للمباني الفخمة من الاثر الباقي في تكوين العزة القومية

على انهُ ان كان الذنب ذنبهُ وهو غريب عن البلد فما عذر الحكومات الوطنية في الاحجام عن اصلاح ما افسد الاجنبي . وما بال هذه المحاكم الجزئية مبعثرة في انحاء البلد ضيقة قذرة لا تسع المحامين ولا للقضاة ناهيك بالمتقاضين حتى ليخيّل الى الاجنبي الذي يأتي العاصمة متفرجاً فيقوده القدر الى المرور بواحدة منها انهُ ازاء جمع احتشد للتسول امام سوق قديمة تباع فيها الاشياء القديمة

والغريب في امر الحكومات الوطنية انها انفقت عن سعة على بناء محكمة مختلطة وهي تترك المحاكم الاهلية على ما تقدم من الوصف على حين تطمع في مدّ اختصاصها الى جميع سكان مصر

***

جالت هذه الخواطر في فكر صاحبنا المصري وبدا التألم على وجهه. ذلك لانهُ كتم الامر

في سره فهو ان يلح نضح بلده ونفسه وكان اشد المه من تغاضي اولي الشأن في بلاده عن هذه الامور السهلة الواضحة

فولى وجهة شطر الناحية من المرتفع الذي يشرف على اسفل المدينة حتى اذا انتهى الصحب من الدوران حول قصر العدل البلجيكي عادوا ادراجهم فزاروا كاتدرائية البلد ثم متحفها العسكري وهو متحف متواضع يدلك على حداثة عهد البلجيكي في الامور العسكرية ترى في صدر ردهة من ردهاته صورة جميلة متقنة الصنع تمثل نابوليون على جواده فتقول ان القوم لا يزالون يذكرون اياما كانوا فيها جزءا من الامبراطورية الافرنسية ثم تلتفت الى اليمين فاذا صورة مثالها ولنجتون فتدرك انك في بلد محايد

وهذا الحياد الذي اصطبغت به البلجيك حتى صلح فرسايل البسها ثوباً لا يكاد يعرف له لون تراه ظاهراً في اخلاقهم وفي فنونهم وفي تجارتهم

على انك لو اردت ان تخارصفة في البلجيك تمتاز بها عما سواها لكانت « العمل »

فحب العمل ظاهرة بلجيكية لا شك في الامر. حتى انهم اقاموا للعمل تماثيل نصبت في الميادين العامة وهذا امر لم يشاهده صاحبنا المصري في بلد آخر على ما يذكر

وحب العمل تمسك برقابهم يمنعهم من اللهو والترف ويقذف بهم وباموالهم الى ما بعُد وقرُب من بلاد الله حتى اصبحت هذه الامة النشيطة من اغنى امم العالم على قلة عدد اهلها

***

وعدنا الى السيارة . ذلك ان الغرض من القدوم الى البلجيك لم يكن لمشاهدة الطبيعة فان الصناعة لم تترك في البلاد مشهداً طبيعياً يستأهل الرؤيا ولم يكن لمشاهدة المدن البلجيكية فكلها اذا استثنيت غاند وبروج خالية من آيات الفن القديم الا في بروكسل فقد اختلط حديثها التجاري ببعض آثارها القديمة كقصر الدوقات فرحمه وكاد يذهب بمعالمه

انما كان الغرض زيارة مواقع الحرب ومعاينة تلك الآثار التي ابقوا عليها حتى يتركوا للزائر صورة صحيحة من سنوات ١٩١٤ الى ١٩١٨ فخرجنا من بروكسل في الصباح مبكرين فوصلنا اوستند حوالي الظهر . واوستند جميلة الجمال كله . جلست الى البحر واوسعت له صدرها فعانقها وكادت يداه تمتدان فتهصران خصرها

وهذا المتنزه المقام على الشاطىء لا تجد له مثيلا في العالم فالماء ثم الرمال ثم الصخور ثم الطرق المعبدة لا تبرح يد الانسان تحسنها وفوق ذلك قصور هي فنادق اوستند جمعت ما شاء الترف وما شاء حب الاستمتاع ان تجمع . وزينتها هذا الكازينو القائم في الوسط كأنه سلطان تحيط به الجنود الامناء

وكان اول اثر شاهدناه من آثار الحرب خندقاً كبيراً ذا ادوار عديدة اصابته قنبلة من قنابل الاسطول الانكليزي فخرقته من وسطه من الاعلى الى الاسفل وابقت كل ما عدا ذلك كما هو فابقاه القوم ذكرى وشاهداً للفن الالمي تخطئه القنابل الخرساء!

اما ما عدا ذلك في داخل أوستند فقد اعيد سيرته الاولى ابنية جديدة ذات رواء وروعة حسن. اما خرب اوستند — او الجزء الداخلي منها — فكان كله من فعل الاسطول الانكليزي حتى يدفع الجيش الالماني عن الوصول الى الشاطيء

ميادين الحرب

وبعد ان تغدينا في اوستند يممنا بالسيارة نزور مواقع الحرب في طريقنا راجعين الى بروكسل واستأجرنا دليلاً يرطن باللغات كلها ولا يحسن واحدة منها على ان يكون مترجماً يترجم لنا ما تقع عليه اعيننا فررنا بديكسمود وانفرس والايبر وما الى ذلك من المواضع التي اشتهرت اسماؤها في الحرب

اما صاحبنا المصري فما راعه الا رؤيا الخنادق الحربية والقلاع التي كان يرد ذكرها في التلغرافات الحربية ولم يكن يدرك لها صورة حقيقية من الواقع. قلعة لا تشغل اكثر من ٣٠ او ٤٠ متراً من الارض قليلة الارتفاع قد امتزج الحجر بالحديد في جدرانها وامتدت الى كل نواحيها اسلاك بعضها للتلفون وبعضها للاشارة وبعضها لتفجير القنابل وفي ارضها حجرات لا تكاد تتسع الواحدة منها لرجل جالس لها مخارج ومداخل بنية فيها من لم يألفها سفكوا دماء الوف الالوف من المتحاربين في سبيل الاستيلاء عليها!

وهي الآن ساكنة صامتة تحيط بها الحقول المزروعة وكل انواع الحياة الدابة. فكان الطبيعة نسيت ما فعل الانسان او لم تكترث لما فعل وكانه هو يأبى الا ان يبقي على هذه الآثار دليلاً على قساوته وتوغله في الهمجية

وهذا خندق تنزل الى جوفه المرصوف فتدهش كيف كان ابن آدم يأوي اليه في الليل والنهار وفي البرد وفي الحر اياماً وشهوراً. وتعجب لهذا الذي يدعي انه سيد المخلوقات يتجرد عن هذه القشرة الرقيقة التي يسمونها حضارة ويلتحف العراء ويفترش التراب جائعاً عطشان يتقي القنابل فوق رأسه كالخلد يدخل في وكره، ويتقي الغازات الخانقة بغطاء على وجهه هو شر منها، وكل ذلك في سبيل تقتيل اخيه الانسان. وتسير السيارة حتى ايبر فتشاهد نصباً قائماً فيها بشكل جسر هائل يضيع العقل في ارتفاعه وفي ضخامته وقد حفرت عليه من اوله الى آخره اسماء الذين قتلوا في الدفاع عن ايبر فاذا بهم اكثر من خمسين الفاً

من الانكليز . كل واحد منهم نام على هذه الارض واختبأ في مثل هذا الخندق وحمل قنبلة في يديه رماها الى خنادق الاعداء وكلهم جاع وبرد وتعذب . ولكل منهم اب وام وحبيب ألمثل هذا خلق الانسان ؟

وعلى طول الطريق وفي وسط هذه الحقول مدافن لا تعد قبورها . هذه انكليزية — وما اكثرها — وهذه بلجيكية وهذه المانية وكلها مكسوة بالازهار وهي غاية ما يستطيع الحي ان يمنحه لأجل الميت . ولبثنا على هذه الحال ساعات والدليل يذكر هذه المعركة ويشير الى هذه المقبرة ونحن كأن على رؤوسنا . الطير من هول الذكرى

***

وكان علينا ان نخلع قبعاتنا دائماً كلما مررنا بمقبرة من هذه المقابر وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب واخذ برد الشمال يلطم وجوهنا ورؤوسنا . اما الرفاق فقد اعتادوا الامر واما صاحبنا المصري فأصيب بزكام شديد لم ينسه حتى الساعة فكان اذا عرف رجلاً اصيب في الحرب بعاهة او مرض تذكر انهُ اصيب هو ايضاً بهذا الزكام من جراء الحرب العظمى واشتد بنا الجوع واعيانا التعب فجئنا الى خان صغير في قرية من هذه القرى الجديدة التي اعاد القوم بناءها بأموال التعويضات الالمانية

ومرَّ بنا بائع يبيع كلاباً صغيرة فما كان من السيدة الانكليزية الا ان ابتاعت واحداً منها فجلس معنا في السيارة وله نباح وعواء يفلق الصخور

فكان صاحبنا المصري كمن اصيب بجنون . فوق الاصابة بالزكام . فانه كان على مذهب هؤلاء العقلاء الذين لا يفهمون للعطف على الحيوان معنى . فان المقام في هذه الدنيا لا يكاد يتسع لمعاشرة الانسان واحتمال اذاه او عطفه فكيف يتسع فوق هذا لدلال الكلاب وما اليها من الحيوان والحشرات . ولكنه اسرّها في نفسه مخافة ان يتهم بالتوحش بين قوم يقتلون بعضهم بعضاً ويشفقون على الحيوان

فما صدق ان عادت به السيارة الى بروكسل وكان قد انتصف الليل يقول ها نحن مع الدليل والسائق سبعة وثامننا كلبنا وهرع الى غرفته ووقع على سريره لا يعلم ان كان يصبح عليه الصباح

سامي الجريديني